محاضرة رقم 7: البحث الكمي في علم الاجتماع الحضري

عناصر المحاضرة رقم 7:

تمهيد

1- خصائص البحث الكمي

2- تصميم البحث الكمي في علم الاجتماع

3- نماذج البحث الكمي في السوسيولوجيا الحضرية

تمهيد:

نشير في مستهل هذه المحاضرة إلى أننا نُفضل تسمية البحوث الكمية على تسمية المناهج الكمية، لأننا نرى أن مفردة البحث أوسع معنى وأشمل دلالة من مفردة المنهج، فالاختلاف بين البحث الكمي والكيفي لا يتعلق بالمنهج فقط، رغم أنه أحد الأوجه الرئيسية للاختلاف، لكنه ليس حاسما بل هناك أبعاد ونقاط اختلاف أخرى، كل بحث اجتماعي إلى براديغم معرفي، وكل براديغم ينطوي على موجهات معرفية وقواعد منهجية، يتبناها الباحثون باختيارهم ووفق قناعاتهم العلمية، ووفق ما حصلوه من معارف نظرية وخبرات منهجية.

1- خصائص البحث الكمي في علم الاجتماع:

هذه المنطلقات نموضعها قبل البدء في دراسة الموضوع المطروح، أو معالجة المشكلة البحثية، بمعنى هنا، نتحدث عن النقاش المعرفي ما قبل المنهج، لذلك نسميها بحوثا كميا وليست مناهجا كمية، لأن هناك من الباحثين من يعرف المنهج الكمي قاصدا به البحث الكيفي، وهذه نفس مواصفات البحث الكمي.

ترجع تاريخيا الممارسات البحثية الكمية إلى بدايات القرن العشرين، حيث انتقلت السوسيولوجيا من التحقيقات الاجتماعية حول ظواهر معنية، كالتحقيق الاجتماعي الذي أجراه تشارلز بوث حول مشكلة الفقر في مدينة لندن إلى أبحاث اجتماعية تنطلق من فرضيات بحثية ، اختمرت هذه الممارسات البحثية في ضوء الشهرة التي نالتها مناهج العلوم الطبيعية من جهة، والفلسفة الوضعية التي شرعنت استخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية من جهة أخرى.

- خضعت البحوث الاجتماعية الكمية لبراديغم الوضعي وفيما بعد للبراديغم الوضعي، حيث يرجع الإطار الفلسفي لهذا البراديغم لأجوست كونت مؤسس الفلسفة الوضعية، الذي أشار في

كتابه الشهير دروس في الفلسفة الوضعية إلى إمكان دراسة الإنسان والمجتمع مثلما ندرس الظواهر في العلوم الطبيعة.

- يقوم البراديغم الوضعي على مسلمة معرفية خفية، ترى أن الحقيقة الاجتماعية مفصولة عن ذات الباحث، ففي البحوث الكمية ينظر الباحثون إلى الحقيقة الاجتماعية على أنها متموضعة في الواقع الاجتماعي، وأنها مفصولة عن ذواتهم، يمكننا المنهج العلمي من دراستها، والكشف عنها ووصفها، وحتى بإمكاننا إخضاعها إلى التجريب، حيث تضع الفلسفة الوضعية الباحث والمبحوث، ترى الوضعية أن الباحث يوجد في وضعية متاسمية على موضوعه، بمعنى أن الباحث عارف والموضوع شيء خارجي عن الذات العارفة.

- تؤسس ثنائية الذات والموضوع في البراديغم الوضعي في البحث الاجتماعي الكمي لما يسمى بالموضوعية العلمية، تلك الموضوعية التي تيم تعريفها؛ بتجرد الباحث من القيم والايدولوجيا والأهواء الذاتية عند دراسة الظواهر الاجتماعية، وضرورة تجنب الباحث الايديولوجيا والتحيزات الثقافية، لأنها تؤثر سلبيا على معالجته للإشكالية البحثية.

- ينهض البراديغم الوضعي على مسلمة منهجية مركزية تتمثل في الإدراك الحسي للظواهر، على هذا الأساس، يقوم في البحث الاجتماعي الكمي على الرؤية الحسية المادية من خلال الملاحظات الميدانية للظواهر الاجتماعية، مع التزام مبدأ الموضوعية العلمية، يمكننا من الكشف وصبر أغوار الظاهرة الاجتماعية، فالظواهر لا تتقدم إلينا إلا في صورتا المادية الحسية الخالصة، وأن الباحث ليس مطالبا بمعرفة ما يقبع وراء هذه الظواهر أو تأويلها، وإنما يلتزم فقط بوصف ما يشاهده حول الظواهر الاجتماعية، كما يشاهد الباحثون في علوم الطبيعة الظواهر في المختبرات العلمية.

- ينطلق الباحثون في البحث الكمي من فرضية مفادها أن المجتمعات والجماعات الإنسانية تحكمها مجموعة من القوانين، لذلك الباحثون مطالبون باستخدام المنهج العلمي للوصول إليها، فالباحث

الاجتماعي هو محرك البحث، وبالتالي، فهو بقدر ما يتعامل مع الظواهر والمشكلات الاجتماعية كأشياء خارجية ومستقلة عنه، ينجح في دراستها موضوعيا.

- تهدف البحوث الكمية إلى التحقيق أحد متطلبات العلم في الابستيمولوجيا الكلاسيكية، وهو متطلب التنبؤ العلمي، فتسعى هذه البحوث الاجتماعية للتنبؤ بمستقبل الظواهر الاجتماعية، وهذا للتحكم فيها وتوجيهها في المستقبل.

- تسعى البحوث الكمية إلى الرفع من قيمتها العلمية بتوظيف الإحصاء الرياضي، حيث ينظر الباحث إلى البحث الاجتماعي بطريقة أداتية، من هذا المنطلق، يتم توظيف الإحصاء الاجتماعي بشكل اعتيادي، وتحولت خطابات هذه البحوث الاجتماعية إلى معادلات رياضية كمية، هذه العملية شبيهة بالتكميم الذي تخضع له الظواهر في العلوم البحتة، كما أن المؤسسات الجامعية والمختبرات العلمية التي تشرف عليها السلطة السياسية، هي من عملت على ترسيخ هذا النوع من البحوث الاجتماعية في الأقسام والمختبرات العلمية، حيث تطلب من الباحثين القيام بدراسات امبريقية، يتم توظيفها في ضبط أفراد المجتمع، أو توظيف نتائجها من طرف المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثا: تصميم البحث الكمي:

تختلف البحوث الاجتماعية الكمية عن البحوث الاجتماعية الكيفية في طبيعة الخطوات المنهجية، التي يجب على الباحثين إتباعها، طبعا هذه الخطوات المنهجية تم تصميمها بناء على البراديغم الذي ينحاز إليه الباحثين، قبل الشروع في عملية البحث وطرق إشكالية الدراسة، فالبحث الاجتماعي الكمي لديه خطاطة منهجية، تنتظم فيها الخطوات من لحظة سؤال الانطلاق إلى عرض نتائج الدراسة، رغم بعض الاختلافات الطفيفة بين واضعي هذه الخطوات، إلا أننا نعتقد

أن هناك ثلاثة خطوات رئيسية، تجعلها من جهة تختلف عن البحوث الكيفية، ومن جهة أخرى ملمة بالأسس المنهجية للبحث الكمي.

- يأتي في مستهل هذه الخطوات المنهجية؛ خطوة تحديد الموضوع /سؤال البحث/الإشكالية، نرى أن هذه الثلاثية مترابطة فيما بينها منطقيا ومنهجيا، بمعنى أن تحديد موضوع البحث، يفضي بطريقة آلية إلى كتابة الإشكالية، وكل إشكالية تحتم طرح سؤال بحثي مركزي، من هذا المنطلق، هناك موضوعات يمكننا دراستها بإتباع البحث الاجتماعي الكيفي أو الكمي، بينما هناك موضوعات مخصوصة بكل بحث اجتماعي.

- يختار الباحثون في البحث الكمي موضوعاتهم بناءا على البراديغم الوضعي الذي يؤطرهم معرفيا ومنهجيا، فيختار الباحثين الموضوعات التي تنتمي إلى ما يسمى بالماكروسوسيولوجي، أي الموضوعات ذات الطابع المجتمعي الكلياني، تصاغ الإشكالية بناءا على تفكيك الظاهرة الاجتماعية إلى مسبباتها، أو علاقتها السببية مع ظاهرة اجتماعية أخرى، ليأتي سؤالها الإشكالي بصيغة الاستفهام لماذا، أو بصيغة الماهية في الغالب الأعم، مسائلا العوامل والأسباب المؤدية للظواهر، وكاشفا عن طبيعة العلاقة بين متغيراتها، كالسؤال عن العلاقة بين العنف الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية للأفراد، أو السؤال عن العلاقة بين الانتحار والانتماء الاجتماعي للأفراد، أو السؤال عن السؤال عن مسببات الانحراف الاجتماعي، وهنا، يكون السؤال سؤالا عن الأسباب التي أفضت إلى تشكل الظاهرة التي نقوم بدراستها.

الخطوة المنهجية الثانية تكون في شكل ثلاثية: الفرضية /العينة /أداة القياس، تحول البحوث الاجتماعية الكمية الأسئلة السببية أو العلائقية لإشكالاتها إلى فرضيات بحثية، تصاغ هذه الفرضيات في الغالب الأعم في شكل علاقة بين متغيرين أو أكثر، متغير يمثل السبب ومتغير آخر يكون النتيجة، تكون هذه العلاقة من طبيعة إحصائية بين هذه المتغيرات، نختبر هذه الفرضيات

ونقيسها من خلال عينة، أيضا تكون العينات في البحوث الاجتماعية الكمية من الحجم الكمي في مقابل الحجم المجتمع الكلي.

- تسحب العينات بطريقة عشوائية، حيث تعطي فرصة الظهور لكل مفردة من مفردات مجتمع البحث، كذلك لها قواعد إحصائية في كيفية سحبها واختيارها، انطلاقا من الفرضيات والعينات يتم اختيار أداة القياس المنهجية، ترشح الاستمارة (الاستبيان) في غالب الأحيان في البحوث الكمية، التي تكون عبارة عن أسئلة معبرة عن مؤشرات الفرضيات، يتم تفريغ معطيات هذه الاستمارات في شكل جداول إحصائية.

الخطوة المنهجية الثالثة: تضم تحليل البيانات وعرض النتائج التي خلص إليها الباحثون، تتم هذه الخطوة في البحوث الاجتماعية الكمية بالاعتماد على البرامج الإحصائية أو ما يعرف ESPSS، ويقوم الباحث بالمعالجة الإحصائية للمعلومات التي قامت بتفريغها من الاستمارات، ويحولها إلى شكل علاقات احصائية رياضية بين مؤشرات الفرضية، ويتم في عملية التحليل الاستنطاق السيسيولوجي للمعطى الاحصائي.

3- نماذج البحث الكمي في علم الاجتماع الحضري:

من الامثلة على الدراسات الكمية في علم الاجتماع الحضري، دراسة بعنوان: المدن البريطانية: دراسة إحصائية للفوارق الاجتماعية والاقتصادية.

Moser, C. A. et Scott, W.: villes britanniques. Une étude statistique de leurs différences sociales et économiques. Edimburgh, Londres, Oliver et Boyd, 1961 (Centre d'études urbaines. Rapport n ° 2).

- اختار أصحاب هذه الدراسة الكمية 15 مدينة في بريطانيا، و50 ألف من سكان مدينة برطانيا، وعالج الباحثون مجموعة من المعطيات الديمغرافية والاقتصادية والسوسيولوجية، واستخدموا 60 متغيرا في الدراسة الميدانية.

- تم اختيار 14 متغيرا متعلقا بالأسرة والسكن والأشغال المنزلية، 2 متغيرين بالنسبة للتربية وتم الاعتماد على التحليل العاملي في دراسة المدينة والظواهر الحضرية.

-ركزت أيضا الدراسة على متغيرات: الدخل، العمل، استعمالات الأرض، أوقات الفراغ.

- العينة تتمثل في مجموعة من المدن ذات الوحدة الجغرافية.

- غالبًا لا تكون المدينة هي الوحدة الأساسية التي تستخدمها الإحصاءات الرسمية ، وبالإضافة إلى ذلك ، تختلف حدودها من مصدر للمعلومات إلى آخر، في الواقع ، إذا لم يرغب الباحثون في الالتزام ببيانات التعدادات أو البيانات المتاحة لعدد قليل من الإدارات الرسمية، فإنهم يضطرون إلى اللجوء إلى سلسلة طويلة وصعبة من الاستطلاعات.

- فضل الباحثون في هذه الدراسة تجريب طريقة جديدة في علم الاجتماع الحضري تتمثل في استخدام الموارد التي يسهل الوصول إليها. علاوة على ذلك، فإن تنوع الموضوعات المختارة كافية لتبرير التحليل الإحصائي القائم على تحديد العوامل المشتركة.

- التحليل العاملي الذي تم توظيفه في هذا البحث الكمي، مكون من مصفوفة معاملات الارتباط التي تربط بين المتغيرات، جعلت من الممكن تسليط الضوء على عوامل مشتركة رئيسية، مستقلة عن بعضها البعض.

-دراسة نظام العلاقات التي تربط المتغيرات المأخوذة في الاعتبار تلقي بالفعل الضوء على تنظيم الهياكل الحضرية. إن معالجة أوجه عدم اليقين في تفسير الارتباطات البسيطة التي تعكس غالبًا تأثيرات سبب تم تجاهله، فإن تحليل الارتباطات بين العامل والمتغير يلقي الضوء على العلاقات بين

كوكبة من المتغيرات. وبالتالي، فإن العامل المقابل للتقسيم إلى طبقات اجتماعية له علاقة قوية جدًا .

- يؤدي تحديد الارتباطات الضعيفة إلى الاستنتاج الأكثر إثارة للدهشة، فعدد سكان المدينة لا يؤثر على الخصائص الاجتماعية في الواقع، هذا هو المتغير الذي يمثل أضعف ارتباط مع جميع المتغيرات الأخرى. لكن هذه النتيجة يجب أخذها في الاعتبار مع بعض الاحتياطيات ، فالأرقام السكانية المستخدمة تقدم واقعا مشوها مقارنة بالوضع الحقيقي ، حيث أن الإطار الإحصائي المدروس هو المنطقة المعتمدة على إحصائيات البلدية وليس النظر إليها ككتلة حضرية.

- في إطار العينة المدروسة ، هذا التأثير الضعيف لحجم المدن تم تأكيده من خلال دراسة موازية أجريت كتحقق منهجي. تم اختيار عدد السكان في الواقع إلى جانب 3 متغيرات أخرى: المنطقة ، الزيادة السكانية والتقسيم إلى طبقات اجتماعية ليكون موضوع دراسة نوعية. قسّم الباحثون المدن إلى مجموعات يتراوح عددها من 4 إلى 6 اعتمادًا على المعيار المدروس. ثم قارنوا كل من المتغيرات الستين .

- يفتح هذا البحث الكمي آفاقًا مثيرة للاهتمام بأنماط التنمية الحضرية، ويجعل من الممكن النظر في تطوير نماذج منهجية لدراسة البنية الحضرية، خاصة بتوظيف نموذج التحليل العاملي، الذي يعتمد على العديد من المتغيرات لتفسير الظواهر الحضرية.